شعرنة النكتة
دراسة في لافتات أحمدمطر

بن صالح نوال
قسم الأدب العربي – جامعة بسكرة

تقديم:

عرف الفلاسفة منذ زمن بعيد الإنسان بأنه حيوان ضاحك و مضحك أيضا.و دوافع الإنسان إلى الضحك كثيرة و أنواعه كذلك ، و يتحدث العقاد عن أنواع الضحك: "هناك ضحك السرور والفرح و هناك ضحك السخرية و الازدراء، و هناك ضحك المزاح و الطرب ، و هناك ضحك العطف والمودة و ضحك الشماتة و العداوة، وهناك ضحك المفاجأة و الدهشة..." [1] و تكمن دافعية الإنسان إلى الضحك في التنفيس عن الآلام المكبوتة، و رؤية الأشياء على غير ما يعهده الإنسان و قد يكون الضحك نوعا من التعالي فوق كروب الحياة ومظاهر الصراعات المادية فيها. [2] يقول الجاحظ:" أجملوا هذه النفوس بشيء من الهزال لتستعين به على الجدّ."[3] والضحك قد يكون مقصودا لذاته و يمكن أن يكون غير مقصود، فقد يحدث في مناسبات لا تتوقع فيها أن تضحك مثلما يحدث في الجنازات. وقد ورد في بعض كتب التراث أنّ رجلا ذهب إلى جنازة مات فيها أحد الرجال فوجد شقيقه يتلقى التعازي.. و كان الشقيق الحي بالغ الإعياء، شديد الهزال و التعب. فقال له الشخص الذي ذهب لتقديم العزاء: من المتوفى؟ أنت أم أخوك؟ هنا ضحك بعض الحاضرين ضحكا شديدا بسبب غرابة التعليق. [4]

لكن الضحك المقصود في بحثنا، هو الضحك الممزوج بالمرارة و الذي تستدعيه النكتة ، وهي ليست النكات المعروفة التي تطلقها العامة فلا يُعرف لها صاحب ، بل نكات يطلقها الشعراء الساخرون من واقعهم ،يحاورون بها قراء على درجة من الوعي و التسامي تجعلهم عنصرا فاعلا في تلقي هذا النوع من الإبداع المتميز. فالضحك والفكاهة من موجبات الإبداع ومسببات تنشيط العقل و الخيال و الحس الاجتماعي بل هو وسيلة إيجاد نوع من العلاقات المشتركة بين الناس.[5]

1ــ النكتة سلاح سلمي للسخرية من متناقضات الحياة:

السخرية هي الهزء بشيء ما لا ينسجم مع القناعة العقلية، ولا يستقيم مع المفاهيم المنتظمة في عرف الفرد أو الجماعة، إنها موقف،متعالٍ،مزدرٍ بما هو شاذ،غريب،منقطع

عن المألوف شيء ما يثير الضحك. فالسخرية بهذا المعنى، هي إثارة الضحك الناجم عن مواقف تتعارض مع المعتاد، و تصطدم بالتقليدي، إنها وليدة الغرابة و الدهشة التي يأتي بها الموقف المقحم على غير العقلاني المنتظم، لذلك تستولد الضحك الآلي الذي يأتي بمنزلة رد فعل أولي و عفوي على انهيار المثل المرتبة في العقل أمام موقف مفاجئ... و السخرية لا ترحم لأنها تحمل أقسى أنواع المواجهة والتعرية[6].

و تتخذ السخرية أشكالا عديدة كالتهكم و الهجاء و الهزء ، لكنها قد تستدعي ألوانا أقل عدوانية، مثل النكات التي تأتي كنوع من التهشيم و التعرية بقصد الثأر السلمي من مفارقات الحياة . ويعتبر "فرويد" النكات التي يطلقها الناس في أساسها نوعا من التطهير و التنفيس عن المكبوت، وليست النكتة على هذا النحو مجرد تسلية أوإثارة[7].

و يختلف دور النكتة باختلاف موقعها و طرق استخدامها . فالنكتة الساخرة على سبيل المثال تقصد إلى تعبئة المعنى المراد إيصاله في زاوية لا يطالها إلاّ الأذكياء المتنبهون، و بذلك تشكل ثأرا سلميا يؤكد التذوق العقلي للساخرين الذين يرتاحون إلى سلامتهم العقلية في مواجهة مقترفي الأخطاء[8]. هناك مقولة مقتبسة عن "هنري برغسون تقول:" لا مضحك إلاّ ما هو إنساني و النكتة هي محاولة قهر القهر وهتاف الصامتين..[9]. و ترى الروائية أحلام مستغانمي بأن النكتة كانت ولا تزال إحدى الثوابت الأساسية للمجتمعات . لذا ترى بأنّ توظيف النكتة في الأدب أمر لا مفر منه خاصة بالنسبة للكتاب الذين يميلون إلى تدوين و رصد تاريخ شعب ما خلال حقبة زمنية معينة...[10]. و النكتة كجنس أدبي لا يقتصر إنتاجه على فئة دون غيرها، وإن اقتربت أكثر من فن القصة القصيرة، فهي متداخلة مع أجناس أدبية أخرى ، فقد تأتي في بيت شعري كما قد تأتي في سياق روائي أو مشهد مسرحي.[11]

تتشكل شعرية النكتة من خلال تكشف قدرة الشاعر عن طاقة تعبيرية تكتنز بروح خصبة قائمة على التركيز و الدقة و المفاجأة في آن واحد. على النحو الذي تنجح فيه "القصيدة النكتة" في تغيير مسار أفق التوقع و التلاعب به بما ينسجم وتحقيق انحراف جميل قادر على التشعير والإدهاش[12].

تنحو قصائد الشاعر الموهوب أحمد مطر في لافتاته المتفجرة و في مسيرها، هذا المنحى القائم على انتزاع الضحكة في بنية ما يسمى بِ:" قصيدة النكتة" أو النكتة الشعرية

التي تنهض في أفقها المفارق على اكتشاف شعرية البساطة و عمق العفوية وفرادة التعامل النادر مع حساسية اللغة وخصوصيتها و كيفية تفجير طاقتها التعبيرية.

2ـــ آليات النكتة الشعرية:

2ــ1غواية العنوان:

ليس من شك في أنّ عنوان النص يمثل الإشارة الأولى التي يصادفها المتلقي عندما يبدأ عملية القراءة ،حيث تشتغل فلسفة اللذة أوّل ما تشتغل في العنوان بوصفه موجها قرائيا هاما تتخذ منه الذات رسالة إلى القارئ الذي سرعان ما يحولها إلى مفتاح قرائي، به يلج أغوار النص[13]. و يظل العنوان المحور الأساس الذي ينفتح على النص، و ينفتح النص عليه. و اللغة المُشكلة للعنوان هي الأساس في إثارة إدراك المتلقي و اندغامه مع ما يقرأ[14]. إن مجرد قراءة أولى لعناوين النكات الشعرية في لافتات أحمد مطر، تجعل المتلقي يتجاوز كسر أفق التوقع إلى ما يسمى بتغيير الأفق. ففي قصيدة "زرق اليمامة" تبدو براعة الشاعر في اختياره لعنوان جريء مفارق، فيه جمع غريب غير مألوف . و هو عنوان يغوي المتلقي و يغريه, و سر الغواية قائم على أساس الدهشة ، فللمتلقي سابق معرفة بزرقاء اليمامة واحدة من نساء العرب عرفت بدقة بصرها و قوته، لكنه لا يعرف جمعا من الناس عرفوا بذلك فيشتم رائحة الغرابة و السخرية منذ البداية. و تتفجر النكتة و المفاجأة حين يكتشف القارئ أسطر النص الذي تتدافع فيه ألفاظ العاهات البصرية: "أعور،أحول،أعمى" في حركة مفارقة تماما لعنوان النص:

الآمر بالفتوى، أعور/و الناطق بالفتوى،أعمى/و العامل بالفتوى، أحول/

الحاضر مرتبكا يسأل:/بالأعين هذه يا ربي كيف أرى درب المستقبل؟[15]

يلتقي هذا النص المكثف في كثير مما يطرح مع ما يذهب إليه المحدثون في حديثهم عن جماليات "المتوقع و اللامتوقع" من حيث كونه يؤكد أهمية الحصول على المعنى بعد جهد و تفكير . فمرارة السخرية في النص السابق تزداد حينما تتغير الأدوار في المجتمع،حيث لا يجد المؤمن مفتيا بصيرا و لا ناطقا بها و لا حتى عاملا بها. و هكذا يكتشف سخرية العنوان ليتحول باختزاله و كثافته إلى نكتة، و في ضوء هذا الفهم يصبح العنوان مدعاة للاستشراف و التأمل كلما كان أقدر على إثارة الأسئلة التي تبني حيزا لمحاورة النص. و في أحيان أخرى يعمد الشاعر إلى إحداث المفاجأة و الصدمة و النكتة من خلال التشكيل الأسلوبي للنص أو لبعض عناصره . و العناصر التي تكون ظواهر أسلوبية لافتة هي

العناصر التي تشكل المفاجأة أكثر من غيرها ، ولذلك فإن المفاجأة تشكل علاقة ما بين القارئ و النص ، لأنها قادرة على اختراق معرفة المتلقي و خبرته ،لأن الخبرة هي التي تحدد إذا ما كان هناك خروج عن المألوف في استخدام اللغة أم لا[16]. في نص :" يقظة" يقول مطر:

صباح هذا اليوم/أيقظني منبه الساعة/و قال لي: يا ابن العرب/قد حان وقت النوم[17]

تخترق هذه القصيدة النكتة أفق توقع القارئ فيصطدم و هو يتلقى السطر الأخير بعناصر غير متوقعة. و تنحرف وظيفة المنبه إلى التذكير بالنوم هذه الإثارة هي التي تفتح أمام القارئ آفاق النكتة.

2ـــ2 بلاغة الحكي:

إن جزءا كبيرا من أثر النكات على المتلقي يكمن في طريقة حكيها. و قد أدرك الشاعر أهمية إتقان هذه الآلية ليجعل من نكاته تتخذ طابعا يمازج بين الشعر والسرد، حيث تتسلم الحكاية مقاليد الحركة و الفعل.. في قصيدة :" الختان"[18] يرسم الشاعر صورة تعد لافتة حقيقية بكل ما تحمله لفظة اللافتة من دلالات الاحتجاج و الكشف والتمرد، صورة تتحقق فيها النكتة عبر ثلاث مشاهد سردية.

في المشهد الأول يستعرض الشاعر حادثة في الطفولة، تعد من سنن العادات العربية الموروثة مستعيرا ضمير الغياب:

ألبسوه بردة شفافة /يوم الختان/ثم كان/بدء تاريخ الهوان

تنتهي الصورة الأولى بربط حدث الختان بالهوان و الضعف و قلة الحيلة، و بإبعاد فكرة الطهارة المرتبطة بالعادة في ذهن القارئ.

في المشهد الثاني يتعرض الشاعر لتفاصيل حدث الختان/الهوان، ليكتشف الطفل فجأة أنه غدر به في احتفالية بهيجة.و صار سره مشاعا:

كشفت البردة عن سري /و في بضع ثوان/ذبحوا سري/و سال الدم في حجري

أما في المشهد الثالث فتنتقل حركة السرد إلى الدائرة المحيطة بالطفل فيسمع أصوات المباركة من كل مكان لتنفجر النكتة حينما يتمنى الشاعر و على لسان الصوت المبارك أن تكون العقبى للسان. كأن حدث الختان هذا لم يكن سوى بداية لقصة الذل و الهوان في المستقبل. إنّ هذا الطفل الذي قبل بالختان وهو صغير سوف يستكين لقطع اللسان في كبره:

فقام الصوت في كل مكان/ألف مبروك/... و عقبى للسان

و تأخذ شعرية النكتة شكلا آخر في قصيدة "انتساب" و التي تنهض أساسا على تحقيق الإسقاط، إسقاط الواقع العربي على الحيوان في محاولة لأنسنة القصة في حركة فنية عالية الحس بالضحك الممزوج بالمرارة:

بعدما طارده الكلب/و أضناه التعب/وقف القط على الحائط/مفتول الشنب/

قال للفأرة: أجدادي أسود/قالت الفأرة:/هل أنتم عرب؟[19]

تتجلى المتناقضات في شخصية القط الذي يخشى الكلب لكنه يستأسد على الفأر، والنكتة في إدراك الفأرة لما يردده العربي غالبا حينما يريد أن يفخر.

و تبلغ النكتة ذروتها في نص شديد القصر و الكثافة اختار له الشاعر عنوانا بالغ الإيحاء:" صدى" لكن الصدر يتخذ وظيفة جديدة غير معهودة ،إنها ليست وظيفة الترديد ، لقد تحول الصدى إلى صوت يخشى على الصوت فلم يعد مجرد رجع له:

صرخت: لا/من شدة الألم/لكنّ صدى صوتي خاف من الموت/فارتدّ لي نعم[20]

إنها سخرية مريرة فيما تستشعره الذات الشاعرة في مواجهة القمع و الكبت. والمبالغة هنا تزيد من غواية النكتة للمتلقي عبر اللغة الجمالية البسيطة.

يمارس أحمد مطر في اللافتات تكنيك النكتة الشعرية أو القصيدة النكتة ،في نصوص شديدة القصر تلبس آليات النكتة النثرية ، فقد لا تتجاوز القصيدة الصورة الواحدة في إيجاز مذهل، مختصر لكثافة دلالية و تعبيرية كبيرة ممارسا سلطتي المفاجأة والإدهاش في آنٍ واحد:/في الأرض مخلوقان:/إنسٌ/و أمريكان [21]

تتحقق رسالةالنكتةحينمايستبدل الشاعرلفظ"جان"بِ:"أمريكان"ليصور بشاعة القوة الأمريكية في مقابل الآدميين الضعفاء ولولا هذه اللعبة اللفظية لماتحققت النكتةمن الأساس.

2ـ3 اللعب بمفردات اللغة:

لقد استطاع الشاعر أحمد مطر و عدد من فرسان القصيدة المعاصرة ، أن يبتكروا استخدامات جديدة للعبارة العربية . و تتمثل هذه الاستخدامات الجديدة في نقل الكلمات إلى سياقات غير معهودة[22]. و تبرز هذه القدرة على تفجير اللغة التي لم تعد مجرد أداة للتعبير،وإنما صارت وعاء للإيحاء بظلال و عوالم مشعة حتى من خلال حروفها. في نص:" لبان" يقول:ماذا نملك /من لحظات العمر المضحك؟/ماذا نملك؟/العمر لبان في حلق الساعة /و الساعة غانية تعلك/تكْ...تكْ/تكْ...تكْ/تكْ/تكْ[23]

تتجلى في هذا النص قدرة الشاعر على تشخيص سخرية القدر بالإنسان في غانية تعلك، فتحدث أصواتا في رتابة مثيرة للأعصاب. هذا العنصر غير المتوقع يدهش القارئ على المستوى الصوتي، إذأنّه يشكل صوتا يعكس فعل المضغ بإحداث الصوت الأرعن المستفز الذي يكاد لا ينتهي. فاستطاع الصوت أن يتفاعل مع السياق الذي ورد فيه ،و يكسرأفق توقع المتلقي بهذا النسق اللغوي لأنّ استدعاء لغة الصوت يشكل بعدا نفسيا جديدا.

2ـــ4 لعبة الحوار:

تلفتنا أغلب النكات الشعرية في اللافتات ببنيتها الحوارية ، حيث يتجه الشاعر إلى التكثيف و الاختزال ، فالإلحاح على استخدام بنية الأفعال الحوارية: " قلت قلنا،قال..." في هذه النكات ،يسهم في إثرائها بعناصر درامية ، و يؤكد انعتاق الشاعر من أثر الذاتية و تفاعله مع المجموع،و في لعبة التخفي خلف المتحاورين تكمن قوة النكتة الشعرية.

إنّ أبنية الحوار التي يستخدمها الشاعر في هذه المقطعات و بشكل مطرد، تتصف بالمراوغة ، فهي توحي للوهلة الأولى بأنّ ثمة انفصاما بين الشاعر و الجماعة المتحاورة،لكنه في حقيقة الأمر فصل ظاهري ، فالشاعر يتعمد تغييب ذاته ظاهريا باستخدام أفعال الحوار تحت تأثير ضمير الغياب . لكنه بهذه الصيغة الظاهرية لنفي الحضور،فإنّه يجعله أكثر حضورا. إنّ استخدام الفعل على هذا النحو يدل على رفض الذات لممارسات الجماعة أو لقسم منها على الأقل، دون أن ت،تتقطع عن الانتماء إليها وتبني قضاياها. و هي تضطلع بمهمة التبصير و كشف الواقع:

قال الصبي للحمار: يا غبي/قال الحمار للصبي:/{ يا عربي }[24]/

و تلعب البنية الحوارية في بعض النكات الشعرية دورا محوريا في كشف تفجع الشاعر ، و سخريته الشديدة من واقع الذات العربية:

ما تهمتي؟/تهمتك العروبة/قلت لكم: ما تهمتي؟/قلنا لك: العروبة/يا ناس قولوا غيرها/
أسألكم عن تهمتي/ليس عن العقوبة[25]

هنا يتسلم الشاعر زمام الحوار مبديا تجاهلا و غفلة مطمئنة تزيد من جمال النكتة وأثرها.

2ـــ5 لغة الحياة اليومية:

لقد رأى عباس العقاد الشعر في كل مكان، في البيت الذي يسكنه، و في الطريق الذي يعبره كل يوم، و سلع الدكاكين المعروضة . و ليس هذا فحسب فالشعر قد يكون في مفردات الحياة اليومية، و اللغة البسيطة بعيدا عن الألفاظ الفخمة، و المنتقاة من قاموس

الشعراء عادة. و أحمد مطر واحد من الشعراء المعاصرين الذين لا يجدون غضاضة في الإفادة من لغة بسيطة قريبة المنال سيما في النكات الشعرية التي تفرض مثل هذه اللغة. يقول في قصيدة:" مسألة مبدأ" :قال لزوجه: اسكتي/و قال لابنه: انكتم/صوتكما يجعلني مشوش التفكير/لا تنبسا بكلمة/أريد أن أكتب/ عن حرية التعبير[26]

تكشف النكتة عن بساطة لغتها و مع ذلك فهي تشع بإيحائية جميلة. و على هذا الأساس فإنّ القارئ لا بدّ له و أن يتفاعل مع النص ليكون مشاركا في تشكيله بصورة تتحقق فيها قراءة أقرب ما تكون إلى عالم النكتة. و بعض هذه النكات يضم عددا من الفجوات أو العناصر غير المحددة التي على القارئ أن يملأ فراغها ذاتيا و بحضور البديهة و المشاركة الخلاقة:كلب والينا المعظم/عضني اليوم و مات/فدعاني حارس الأمن لأعدم/بعدما أثبت تقرير الوفاة /أنّ كلب السيد الوالي /تسمَّمْ [27]

لقد شكلت ظاهرة تسرب الكلمات اليومية أو البسيطة إلى لغة الشاعر المعاصر،بلاغة جديدة استدعاها الشاعر ليصدم قارئا ملولا يبحث عن بلاغة جديدة:

ترك اللص لنا ملحوظة /فوق الحصير/جاء فيها:/لعن الله الأمير/لم يدع شيئا لنا نسرقه/إلاّ الشخير...[28]

لعل من أبرز وسائل إطلاق النكات الشعرية تكنيك التناقض بين طرفين مما يفجر المفارقة و من ثمّ النكتة و الضحك يقول الشاعر في لافتة أخرى بعنوان:" خطاب تاريخي"

رأيت جرذا/يخطب اليوم عن النظافة/و ينذر الأوساخ بالعقاب/و حوله/يصفق الذباب[29]

إنّ هذا المشهد المحكي بما يسوقه من مواقف لا معقولة يجعلنا نضحك من عيوبنا ونسخر من واقعنا عبر نماذج تتماهى في القبح و التبجح لتكشف لنا بشاعة الواقع. حيث يظهر هنا التناقض بين الحديث عن النظافة و جمهور المتفاعلين:[الجرذ والذباب] رمزين من رموز القذارة . و تزداد النكتة تأثيرا حينما يروي الشاعر القصة متظاهرا بغفلة مطمئنة.

خلاصة:

يحول أحمد مطر الحزن المتشظي في أعماقه ، و في واقعه إلى حالة شعرية خاصة عبر لغة منزاحة،تتسم مفرداتها ــ على بساطتهاــ بالأناقة و قوة الإيحاء، وتراكيبها بغنى المعطيات الجمالية و الدلالية و الإيقاعية . و لعل هذه العناية بلغة النكتة و محاولة جعلها أقرب ما تكون إلى النكات التي يطلقها الناس، تعبر عن وعيه بأهمية السياق اللغوي في إنتاج شعرية التجربة. و أخيرا بإمكاننا النظر إلى البعد الجمالي لهذا الجنس الشعري ــ

إن صح القول ــ و هو قصيدة النكتة أو النكتة الشعرية التي تمثل القصيدة كلها لا جزءا منها، و ذلك من خلال آليات بنائها وإنتاجها و طريقة استجابة القارئ لها ، و التي تمثل سلسلة من تغييرات آفاق توقعاته اللغوية و الجمالية لتتحول النكتة إلى رؤية للعالم.

هوامش البحث:

[1] عباس العقاد، جحا الضاحك المضحك،دار الكتاب العربي،ط 1968/1،بيروت ، لبنان،ص:17

[2] مصطفى السيوفي، الأدب الضاحك،الدار الدولية للاستثمارات الثقافية،القاهرة، مصر، ط1 2008،ص:17

[3] أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ،الحيوان،ج1،ص:19

[4] عن المرجع السابق،ص:17

[5] مصطفى السيوفي،الأدب الضاحك،ص:18

[6] سوزان عكاري،السخرية في مسرح أنطوان غندور،المؤسسة الحديثة للكتاب،طرابلس،لبنان، دت،1999،ص:29

[7] ينظر المرجع نفسه،ص:25

[8] المرجع نفسه، ص:27

[9] المرجع نفسه، ص:29

[10] عن جريدة الفجر،يومية جزائرية مستقلة،عدد 14ــ09ــ2009

[11] المرجع نفسه، العدد نفسه

[12] سوزان عكاري، السخرية في مسرح أنطوان غندور،ص:30

[13] ينظر موسى ربابعة،جماليات الأسلوب و التلقي،دار جرير للنشرو التوزيع،عمان، الأردن،ط1 2001،ص:160

[14] المرجع نفسه، ص:160

[15] أحمد مطر، الأعمال الشعرية،دار الالتزام للطباعة و النشر و التوزيع، دت 2007،ص:29

[16] موسى ربابعة، جماليات الأسلوب و التلقي،ص:160

[17] أحمد مطر، الأعمال الشعرية،ص:38

[18] المصدر نفسه،ص:250

[19] المصدر نفسه، ص:227

[20] المصدر نفسه، ص:38

[21] المصدر نفسه، ص:145

[22] موسىى ربابعة، جماليات الأسلوب و التلقي ،ص:120

[23] أحمد مطر، الأعمال الشعرية ،ص:35

[24] المصدر نفسه،ص:185

[25] المصدر نفسه،ص:33

[26] المصدر نفسه، ص:177

[27] المصدر نفسه، ص:74

[28] المصدر نفسه،ص:79

[29] المصدر نفسه، ص: 40